المجلد السابع والعشرون للعام ٢٠٢٣م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

صورة السلوك عند البخيل
دراسة مقارنة بين بخلاء الجاحظ و (تاجر البندقية) لشكسبير.

The image of miserly behavior:
a comparative study between misers and Shakespeare's (The Merchant of Venice).

بقلم الدكتورة

رحمة هاشم عبيد المحديني

أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الملك عبدالعزيز - المملكة العربية السعودية.

العدد الرابع (إصدار ديسمبر ٢٠٢٣م)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

صورة السلوك عند البخيل دراسة مقارنة بين بخلاء الجاحظ و (تاجر البندقية) لشكسبير

رحمة هاشم عبيد المحديني

قسم اللغة العربية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الملك عبدالعزيز - المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني : d.rhalmohdeni@gmail.com

الملخص

لقد تناولت هذه الدراسة (صورة السلوك عند البخيل دراسة مقارنة بين بخلاء الجاحظ و (تاجر البندقية) لشكسبير) على خطى المدرسة الأمريكية في الدراسة المقارنة، مع الاستعانة ببعض أدوات المنهج التحليلي النفسي حسب ما اقتضت طبيعة النصوص، في محاولة للوصول إلى أبعاد السلوك الصادر عن البخيل وطبيعته، وأثره، ودرجة تفاعله مع المتلقي قبولا أو رفضا، توقعا أو مخالفة لذلك التوقع نتيجة غرابة الفعل الصادر عن هذه الفئة عن وعيه وإدراكه.

وأيضا معرفة مدى الاتصال والتأثر بين الأدبين، وهل توجد نقاط التقاء بينهما، وقد كان من أبرز النتائج عدم وجود تأثر بين الأدبين، ولكن هذا لا يمنع وجود فكر وقيم إنسانية وسلوكيات مشتركة بين الأمم، تشكل عنصرا مهما في بنائها، وتحتاج إلى التعبير عنها مهما اختلفت اللغات والديانات، وتبقى البشرية في حاجة ماسة لكل ما هو جدير بتغذيتها للسير في توافق إيجابي فعال مع الكون والحياة.

الكلمات المفتاحية: الجاحظ، البخلاء، شكسبير، شايلوك، البخل، السلوك، مقارن.

The image of miserly behavior: a comparative study between misers and Shakespeare's (The Merchant of Venice.)

Rahma Hashem Obaid Al-Mahdini
Department of Arabic Language, College of Arts and Humanities, King Abdulaziz University, Saudi Arabia
Email: d.rhalmohdeni@gmail.com

Abstract

This study dealt with (the image of the behavior of the miser, a comparative study between the misers of Al-Jahiz and (The Merchant of Venice) by Shakespeare) in the footsteps of the American School in the comparative study, with the use of some tools of the psychological analytical approach as required by the nature of the texts, in an attempt to reach the dimensions of behavior emanating from The miser, its nature, its effect, and the degree of its interaction with the recipient whether it is acceptance or rejection, expectation or violation of that expectation as a result of the act of this category being alien to his awareness and perception.

Also, knowing the extent of communication and influence between the two literatures, and whether there are points of convergence between them, and one of the most prominent results was the absence of influence between the two literatures, but this does not preclude the existence of thought, human values, and common behaviors between nations, which constitute an important element in their construction, and need to be expressed no matter how different they are. Languages and religions, and humanity remains in dire need of everything that is worthy of its nourishment to walk in an effective positive compatibility with the universe and life.

Keywords: Al-Jahiz, Misers, Shakespeare, Shylock, Miserliness, Behavior, Comparative..

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاح

تعقد في هذه الورقة دراسة مقارنة بين مسرحية انجليزية، كتبها شكسبير وهي "تاجر البندقية"، وبين كتاب "البخلاء" للجاحظ، وتستند هذه الدراسة على وجود تشابه بين شخصية (شايلوك) في مسرحية شكسبير وبين شخصيات البخلاء في كتاب الجاحظ، وتتم المعالجة وفق معطيات المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن، إذ لا تشترط وجود صلة تاريخية مباشرة بين الآداب، كما أنها تتوسع في المقارنة بين الأدب وفنون أخرى كالمسرحية مثلا[1]، وهذا من صميم ماتم في هذه الدراسة، وقد كانت نقطة التشابه التي تم الربط من خلالها بين الشخصيات في هذه المقارنة هو السلوك، أو الدراسة السيكلوجية بين شخصية (شايلوك) ونماذج من شخصيات الجاحظ في بخلائه، نقف فيها على بعض الأفعال الخاصة بتعاطي الشخصيات مع صفة البخل، وهل نتج عنها سلوكيات معينة يمكن عدها نوعا خاصا بهذه الفئة، وهل هناك نقاط التقاء بينهم-أي العملين- في التعامل مع الآخر تحت هذا التوجه؟ أم أن الاختلاف بين الأدبين شكّل صورا غير متقاربة في سلوكياتهم الناتجة عن البخل؟

(١) يُنظر: حيدر محمود غيلان، الأدب المقارن ودور الأنساق الثقافية، مجلة دراسات يمنية، ع٨٠، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ع٨٠،٢٠٠٦م،٢٣-٢٨ (بتصرف).

تقديم

إن الحديث عن سلوك شخصية ما يحتم علينا أن نبين المقصود من طبيعة السلوك الذي تقوم عليه الدراسة أو العمل، وعليه يكون سير الدراسة في تعاملها مع تلك الشخصيات، وتبيان الغرض من تلك الدراسة، فالسلوك الإنساني يُعرّف بأنه كل ما يصدر عن الإنسان من انفعالات ونشاطات مختلفة سواء كانت ظاهرة، أم متشكلة في منولوج داخلي غير ظاهر، وإنما يمكن الكشف عنه من خلال النصوص الأدبية التي تعبر عن فكر تلك الشخصيات وكيفية تعاملها مع رؤية أو اعتقاد تمكن منها نتيجة تأثير البيئة، أو تأثير عوامل أخرى قد تكون دينية، أو اجتماعية ، أو اقتصادية، أو غير ذلك.

وهذه الدراسة جاءت في نماذج مختارة من بخلاء الجاحظ، تمثلت فيها بعض أنماط السلوك-غرض الدراسة- التي تصور "استجابات الفرد وتصرفاته وأفعاله نحو موضوع"[(١)] معين، فالفرد لا يستطيع التعبير مباشرة عن فكره وردود فعله، ومشاعره بنفس مستوى السلوك الظاهر أو المتمثل في رد فعل تجاه ما يشعر به أو يعتقده، ومن هذا المنطلق تحاول الدراسة أن تستجلي بعض السلوكيات التي جسدتها العلاقة بين المال والإنسان بشكل خاص، ضمن فئة عرفت بمسمى مألوف-البخلاء- ولكنها أعطت للقارئ صورة تجاوزت تلك الألفة ، وخرجت عن توقع القارئ إلى ما يخالفه؛ فهي تصور "فئة من الناس اتخذت لنفسها منهجا ودستورا في التفكير والتصرف

(١) عبداللطيف محمد خليفة وعبد المنعم شحاته محمود، سيكولوجية الاتجاهات (المفهوم، القياس، التغيير)، (دار غريب للطباعة والنشر:١٩٩٤م)، ٢١

وباتت مقتنعة اقتناعا كاملا"[1]به، إذا أصبح حالة ذهنية تؤكد عدم القدرة على الانفصال عن المال/ الثروة/ كل ما يمكنه أن يكون وسيلة للكسب، فتكون هذه أولى مراحل التحول السلوكي، والتغير النمطي لطبيعة الشخصية، فيأتي التعبير عن ذلك في صورة ما من خلال أنماط متعددة من السلوكيات، كما سيأتي.

وينبغي الإشارة إلى أن العناية بالمنهج النفسي التحليلي في هذه الدراسة المقارنة ستكون واضحة للقارئ من خلال مناقشة النصوص محور الدراسة، لعلها تسهم بشكل أو بآخر في تفتيق دلالات النص وتبيان مقاصده وما يكمن وراءه من أبعاد يمكن أن تعطي صورة واضحة لطبيعة الفكرة التي تقوم عليها الدراسة.

(١) باهية سعدو، سيمياء البخل في كتاب البخلاء للجاحظ، مذكرة لنيل درجة الماجستير، (الجزائر: جامعة مولودمعمري تيزي روز، ٢٠١م) ١

تعريف موجز بمحتوى النصين:

- **البخلاء للجاحظ**:

لقد ضمّ كتاب الجاحظ مجموعة متنوعة من القصص دارت جميعها حول موضوع البخل، وجمعت تلك القصص شخصيات عدّة أبرزت نموذج البخيل بأحواله وصفاته المختلفة، فيظهر تارة بخيلاً مقتراً، وتارة أخرى يكون البخيل ضيفاً أو مُضيفًا، وأحيان أخرى يكون ضحيةً أو منتصراً، كما نوّع الجاحظ في جنس بخلائه وإن كان الغالب رجلا، إلا أن ذلك لا يمنع أن تكون الأنثى قد أخذت مكانها بينهم، أضف إلى ذلك حالة البخيل فقد يكون البخيل غنياً وقد يكون فقيرا معدماً. ولم ينس الجاحظ في بخلائه أن ينوع أيضا في عرق البخيل ومنزلته فقد يكون عربيا، وقد يكون غير ذلك، عالما أو جاهلا. بالإضافة إلى أن البخيل لدى الجاحظ قد يظهر بصورة فردية، وقد يظهر أيضاً كنموذج يمثل طبقة معينة. إذن القارئ يحضر مع الجاحظ تنوعا مذهلا في شخصياته، متألقا في طرحه، فـ"لقد كان الجاحظ في البخلاء فنانا باعتماده لونا أساسيا وهو الذات البشرية، تسلل إلى أعماقها ليستنبط غموضها مستجليا المواقف النفسية والتعقيدات العاطفية عند هذه الفئة"(١)، فتتجلى أبعاد تلك النزعة، ويتضح بها فكر البخيل، وتوجهاته، وطبيعة حياته، كما صوّر الجاحظ نفسية البخيل من خلال تجسيد سلوكياته المتوافقة مع ذلك الفكر، الذي برز في أنماط متعددة، منها: البخل على النفس، والبخل على الأقارب، والأبناء، والخدم، وغيرهم(٢).

---

(١) باهية سعدو، مرجع سابق، ٢

(٢) يُنظر: حامد طاهر، ظاهرة البخل عند الجاحظ دراسة نصية، حولية مركز البحوث والدراسات الإسلامية، ع٩، ٢٠٠٩م، ٢٠٧

- **تاجر البندقية لشكسبير**:

دارت أحداث مسرحية "تاجر البندقية" لشكسبير في مدينة (فنيسا) البندقية بإيطاليا، وكان بطلها الذي جسد نموذج البخيل فيها هو اليهودي(شايلوك)، إلى جانب بعض الشخصيات الأخرى، وجاء شكسبير بنموذج فردي للبخيل، إلا أنه يمثل حقيقة اليهودية بالنظر للخلفية التاريخية والثقافية للمسرحية، فقد اتسم بالعدوانية والحقد، وكان يقرض الناس بالربا، وكان في المقابل تاجر اسمه (انطونيو) يمثل الشخصية المضادة لـ(شايلوك) في طيبته، ومساعدته للناس دون ربا أو فائدة، وكان (أنطونيو) يوبخ (شايلوك) في كل مرة يقابله فيها، ويقلل من شأنه، ماجعل اليهودي يتحين الفرص للانتقام منه.

وأبرز الكاتب لدى (شايلوك) صفة البخل، وهي الثيمة التي دارت عليها أغلب الأحداث في المسرحية، وما تولد عنها من صراعات، فـ(شايلوك) كان يسعى لتنمية ماله بأي طريقة، و الربا كان الوسيلة السريعة للكسب، ولهذا كان (شايلوك) موضع احتقار وامتهان من أغلبية سكان المدينة.

من مظاهر البخل عنده أيضاً ما كان عليه (لانسلوت) خادم (شايلوك) من الهزال نتيجة بخله بالطعام على أهل بيته، وموقفه من ابنته وعدم اكتراثه بمصيرها، وإنما رغبته في رؤيتها ميتة والجواهر في أذنيها، فهذا الأمر أظهر بخل (شايلوك) وحبّه الطاغي للمال، وأيضا الحال التي كان عليها بيته رغم ما يمتلكه من أموال.

ورغم تلك المظاهر الشاهدة على بخل (شايلوك) إلا أن هذه الصفة لم تلبث أن تقف عند محطة لقائه بـ(انطونيو) ورفض الأول قبول المال مع الفوائد في مقابل انتقامه من (أنطونيو) واقتطاع رطل من لحمه، ولعل ذلك

يعود لطبيعة العلاقة التي جمعته به، ولكن ألم يكن للبخل دور ممزوج بالعداء يمكنه أن يحقق استجابة أكبر للكسب والتحصيل، خاصة أن (أنطونيو) كان من كبار تجار مدينة البندقية؟

- **الدراسة**:

إن مرجعية السلوك في بخلاء الجاحظ يتجاذبها عدة أطراف: تنوع الشخصيات وتنوع البيئة التي تنتمي إليها تلك الشخصيات أولا، والمذهب الديني الذي تعتنقه ثانيا، والظروف والملابسات المحيطة ثالثا، فهناك نوازع وأبعاد نفسية أعطت هيكلة خاصة لصورة البخيل عند الجاحظ ، فكان تصوير السلوك من خلال تصوير نفسية البخلاء في تحركاتهم ، وتصرفاتهم ، وإشارات يديهم التي يقومون بها، والعلامات التي تبدو على وجههم ، وتصوير حالة القلق التي يبدو عليه خوف افتضاح أمر بخلهم؛ ولهذا يقول الجاحظ : " ولا عجبي من مغلوب على عقله، مسخر لإظهار عيبه ،كعجبي ممن قد فطن لبخله ، وعرف إفراط شحه ، وهو في ذلك يجاهد نفسه ،ويغالب طبعه ، ولربما ظن أن قد فطن له ،وعرف ما عنده، فموه شيئا لا يقبل التمويه،... ، فلو أنه كما فطن لعيبه ، فطن لضعفه عن علاج نفسه، لترك تكلف ما لايستطيعه، ولربح الإنفاق على من يذمه..."[(١)]

أما شخصية (شايلوك) عند شكسبير فتخضع في سلوكها لعوامل نفسية دينية؛ إذ نجد السلوك لديه قد تشكل نتيجة سيطرة فكر عقائدي بالدرجة الأول، وهذا الفكر ينبع من زاويتين داخلية في اتباعه لليهودية، وخارجية في سيطرة المسيحية من حوله، وبالتالي نبذ المجتمع لكل من يخالف الاتجاه

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، البخلاء، تقديم وضبط: يوسف الصميلي، (بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠١٥م)، ٧

الخارجي، الأمر الذي عمّق بؤرة العداء لديه، إضافة إلى ذلك أن النفس" الإنسانية تتأثر بالمال في تكوينها وفي الكثير في ديناميكيتها سواء كان ذلك في البخل والحقد والكذب والرياء وهوى الثراء ونظائرها"[١] ، فيكون تأثير المال عاملا أساسيا في تشكيل استجابات نفسية وعقلية مختلفة –لها توافق مع جذور عميقة في الشخصية– قد تتعارض مع الطبيعة الإنسانية المألوفة، فيصبح البخل حاجة نفسية تقترن بالرغبة في جمع المال الذي ارتبط كثيرا بتحقيق الذات وتحقيق الوجود، فالذات " تظهر بصورتها الحقيقية بوصفها فاعلا من خلال الإنصات إلى ذلك الشيء الذي بداخلها ويتجاوز حدودها، فالتخلي عن تلك القوة الحاسمة يعني التخلي عن نفسها"[٢] ، وهو من خلال ذلك يعبر عن شكل يمثل فكرا دينيا متأصلا في شخصيته، متعارضا مع التوجه الديني للمؤلف ولطبيعة العصر الدينية آنذاك، ولعل عدم التوافق ساهم بشكل أو بآخر في رسم تلك الصورة القاسية لشخصية البخيل (شايلوك) في (تاجر البندقية)، شخصية عدائية تتجسد بعض صور الانتقام عندها في رؤية دموية، ويمتد عداؤها حدود المجتمع الخارجي إلى مجتمع الأسرة/ الأبناء، بشكل خاص، كما سيأتي في ردة فعل (شايلوك) مع ابنته، يضاف إلى العوامل السابقة طبيعة المعاملة التي كان يقابل بها (شايلوك) من قبل مجتمعه فقد شكلت عاملا مهما في تكوينته الإنسانية العدائية إلى جانب بخله كما سيأتي.

---

(١) محمد رضا خضري، سيكولوجية البخل عند الجاحظ، متاح على: revue.ummto.dz/index.php

(٢) تيري إيجلتون، مشكلات مع الغرباء دراسة في الأخلاق، ترجمة: عبدالرحمن مجدي، مصطفى محمد فؤاد، مراجعة: مصطفى محمد فؤاد، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي،٢٠١٧م) ٢١٦

وحين نطرق باب البخيل يمكن القول بإن وجود المال فيه شعور بالأمان، وشعور بحاجة الآخر إليه؛ لذلك جُعل السلوك الإنساني في اعتقاده وإيمانه بالبخل سلوكا إيجابيا؛ تتم مناقشة أموره وما يتعلق به -غالبا-في أماكن لها خصوصية دينية كالمساجد(١)،لإحاطة الأمر بشيء من القدسية التي تمنحه القبول والرضا وإن تنوعت طرق الحصول على المال وتنوعت، واتخذت سبلا غير معروفة، قد يكون بعضها مخالف للعرف الديني، وذلك لأن الشعور بالأمان والسيادة عندهم قد ولّد الخوف من فقدان المال؛ فكان التفكير في حيل تمنع فقده سلوكا مقبولا نفسيا وعقليا؛ حفاظا على مكانة تجعل منه محط احتياج دائم من قبل الآخرين كما حدث مع (شايلوك) في مسرحية تاجر البندقية الذي كان المنقذ عندما احتاج صديق انطونيو للمال.

و يظهر السلوك فعلا أو حركة من خلال الاستناد إلى بعض الوقائع التي تعطينا نبذة عن بعض السلوكيات الإنسانية في التعامل مع النفس أو مع الآخر، قريبا كان أو بعيدا، وكان لاختيار ذلك سبب يتجسد في إيضاح أبعاد ما وصل إليه سلوك البخيل على المستوى الخاص والصورة التي انعكس بها على المستوى الخارجي أو العام دون اكتراث لنظرة المجتمع إليه واصطداماته به، وأيضا معرفة درجة التوافق بين المدلول والدال الذي جسد ذلك السلوك في صورة لغوية استطاعت أن تعبر بوضوح عن الصورة العميقة للسلوك المغاير للمألوف الكامن في فعل الشخصية/ البخيل/ النمط المخالف للتوقع عند القارئ في العرف، ولكن في طبيعة السلوك الصادر عن هذه الفئة من المجتمع هل تنطبق صفة المخالفة؟ أم هي مناوشات معتادة

(١) يتمثل في البخلاء عند الجاحظ، كما في قصة أهل البصرة من المسجديين، يُنظر: الجاحظ، مرجع سابق، ٢٩-٣٣

في تصور المتلقي؟ فما هي أنماط السلوك التي تجلت في النصين؟ وهل هناك تقارب، أو احتمالية وجود صور مشتركة بين بخيل شكسبير، وبخلاء الجاحظ، وهل كان هناك رابط مشترك للعلاقة بينهم، أم أن التكوين البيئي والديني قد أفضى إلى وجود نمط خاص بكل واحد منهما حتى تلاشت معه العلائق القائمة بينهما وإن كان لهما نفس الصفة (البخيل)؟

المحور الأول: سلوكيات عربية:

العصر العباسي عصر سيادة من الجانبين السياسي والاقتصادي، والقراءة الأولى في بنية السلوك الناتج عن البخل قد تنفي حقيقة تلك السيادة في عُرف المتلقي الواقعي، وتؤدي به إلى استنطاق مغاير لذلك التاريخ-العصر العباسي- وتكثيف الشعور ببعض التكهنات والتصورات حول إمكانية تدهور الأوضاع آنذاك، فكيف تكون الحال إن صحت تلك التكهنات؟ وما الذي سيترتب عليها من سلوكيات يمكن أن تتجاوز ما تم رصده هنا في بعض النماذج المقدمة؟ وهنا يأتي التضاد بين واقع متقدم في كياناته الاقتصادية بشكل خاص وبين فئة مجتمعية تتقدم في اتخاذ سلوك وأنماط مغاييرة للبنية والمكانة المعروفة عند المجتمع.

إن قراءة العمل من جانب نفسي تبين أن "المرء يبني واقعه في علاقة أساسية مع رغباته المكبوتة ومخاوفه، ولهذا فإن كل تعبير (سلوكا أو لغة أو خيالا) هو مجموعة علاقات معقدة، تتوسط وتتدخل في كل ما يعتقد المرء أنه يفعله أو يقوله أو يعلم به"[١] ، وتتضح الرؤية في تشكيل بناء الواقع وفق رغبات المرء من خلال التعبير أو النمط الذي اتخذته بعض شخصيات الجاحظ في بخلائه لتشكيل هيكلة ذلك الواقع، وتبيان عمق العلاقة التي تلتقي فيها تلك الدوافع والاحتياجات والسلوكيات المختلفة مع الإطار العام للحالة التي يعيشونها ويؤمنون بها.

وفي مقدمة الصور السلوكية التي تبين تلك العلاقة التفاعلية بين الواقع والرغبات أو بينه وبين ما تعايشه النفس وتؤمن به، نقف على

(١) ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ط٣ (المغرب: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٢م) ، ٣٣٣

صورة عن سلوك تحكمه عاطفة انتماء أبوي، إذ نجد سؤال الابن عن أدم أبيه، وكيف أنه أحدث في الجبنة جزءا بسيطا من أثر المسح على اللقمة، فامتعظ الابن وقال لو علمت ذلك ما صليت عليه، فكان عليه أن يكتفي بالإشارة إليها من بعيد حتى يستأدم[1]، هنا انطمست علاقة الانتماء الأبوي، وسُلب ميثاق القرابة والعهد، فانعكست صورة التعامل مع الأب التي بدأت بـ(امتعظ) كدال على خوالج نفسية مضادة لذلك الانتماء، وعميقة الاستجابة للمؤثر الداخلي الذي يصنعها، فتحت (امتعظ) تتوالى دلالات الغضب/ الشعور بالاستياء/ الألم/ المشقة/ الإهانة/ الغم/ الوجع، في مقابل: "أحدث...جزءا بسيطا من أثر المسح"، يؤكد الفعل السابق-امتعظ كسلوك- بـ" لو علمت ذلك ما صليت عليه"، وعند النظر في البنية التركيبية للجملة الأخيرة نجد حضور (لو) وهي حرف شرط يفيد الامتناع فلو علم بالأثر الذي تركه ما كانت الصلاة عليه، وهنا كانت الرغبة في الامتناع عن واجب ديني في مقابل تأثر بعض الاحتياجات التي تتغذى بوجودها نفس البخيل وفكره، واستخدام الفعلين (علمت/ ماصليت) في الزمن الماضي يعكس التعلق بما هو أكبر من تلك العلاقة، بل زوالها باعتبارها جزءا من ماض خالف استراتيجية تقوم على الارتباط بصورة حياتية هي النمط/ المذهب/ الطريقة التي يعيش لأجلها الابن.

نمط أو صورة أخرى يقدمها الجاحظ بعيدة عن التكوين الفطري للشخصية السابقة، إذ نقف على وجهة جديدة تحمل فكرا مختلفا في طريقة التعبير عن السلوك الناتج عن بنيتها التكوينية النفسية والفكرية(البخل)، وتظهره في طرق غير عادية، تداهم بها الوعي الإنساني بشكل مفاجئ، في

(١) الجاحظ، مرجع سابق، ١٢١

محاولة للجمع/ الربح، بغض النظر عن طبيعة الشيء الذي يمكن الحصول عليه ولكن يكون التركيز على خاصية الامتلاك له، وإبقائه فاعلا في تحقيق الكسب، وافرا من أجل حصول الرضا النفسي الذي يبحث عنه هذا النوع من الشخصيات وفق التوجه أو المبدأ الذي تعيشه، ويفرض عليها السلوك استجابة لذلك، ونعرض هنا لصورة نمطية تمتلك هذه المرجعية الخاصة لإضافة فكرة للتوفير بعيدة عن أفق التوقع لدى القارئ، فمن ذلك أن أناساً "من المراوزة إذا لبسوا الخفاف في الستة الأشهر التي لا ينزعون فيها خفافهم ، يمشون على صدور أقدامهم ثلاثة أشهر ، وعلى أعقاب أرجلهم ثلاثة أشهر حتى يكون كأنهم لم يلبسوا خفافهم إلا ثلاثة أشهر ، مخافة أن تنجرد نعال خفافهم أو تنقب."[١] ، فتجاوز المراوزة صورة البخل المعروفة أو التي يمكن التنبؤ بها إلى ابتداع طرق غريبة في توفير نعالهم المدة الأطول، حتى لو تصاحب ذلك السلوك مع قبول الأذى الجسدي الواقع عليهم في سبيل الحفاظ على بعض الممتلكات، ولعل لهذا الألم متعته الخاصة حين يأتي منسجما مع الفكر، ومحققا للغاية التي ينشدونها. والمراوزة اسم يأتي من الفعل:"روز: الروز: التجربة،... الروز: الامتحان والتقدير،...قولهم قد رزت ما عند فلان أي طلبته وأردته،.. وراز الحجر روزا: رزنه ليعرف ثقله،... من راز يروز إذا امتحن عمله فحذقه وعاود فيه،...راز الرجل صنعته إذا قام عليها وأصلحها."[٢]، فهي دلالات تحمل معنى الشدة مع الاختبار والتجربة، وتثمين الشيء-دون النظر إلى قيمته- والإصلاح، إضافة إلى معنى القوة وحسن التقدير، وتتوثق عُرى هذه الدلالات مع قيمة

(١) الجاحظ، مرجع سابق: ٢٨

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ط١، م٦، (بيروت: دار صادر،٢٠٠٠م) ٢٦٢

نفسية فكرية عند المراوزة-البخل-فتكون هيمنة تلك القيمة وسيادتها في كيفية تحقيق الدوال السابقة على المحيط الذي تعيشه؛ فيكون التجريب والاختبار لطرق تُسن بها قوانين لحفظ الأشياء دون النظر إلى طبيعتها وطبيعة الأثر الذي يمكن أن تتركه على صاحبها، إنما الغاية التوافق مع السطوة لتلك القيمة/ البخل، وهو اعتراف نفسي -متجسد في فعل الشخصيات- بانتساب حياتي خاص إلى ذلك العالم الذي يحكيه الجاحظ في بخلائه.

وتظل صور البخل حاضرة متنوعة في مجتمع البخلاء عند الجاحظ، وتبقى غرائب السلوك الناتجة عنه ظاهرة في تفاعلات وردود أفعالٍ تليق بحكمة التسجيل لها في ذلك المؤلَّف، فتأتي حكاية تقدم صورة نمطية أخرى، تربطنا بذلك المجتمع، عنصر الشخصية الرئيس فيها الخدم، ولعل الصورة الأبرز في بخلاء الجاحظ للنمط الذي يتجسد فيه السلوك وصورته الظاهرة بين هذه الفئة وشخصية البخيل ما جاء عند زبيدة بن حميد: " وحدثني أبو الإصبغ بن ربعي، قال: دخلت عليه بعد أن ضرب غلمانه بيوم، فقلت له: ما هذا الضرب المبرّح، وهذا الخلق السيء؟

هؤلاء غلمان، ولهم حرمة وكفاية وتربية، وإنما هم ولد. هؤلاء كانوا الى غير هذا أحوج. قال: «إنك لست تدري أنهم أكلوا كل جوارشن كان عندي، قال أبو الإصبغ: فخرجت إلى رئيس غلمانه فقلت: «ويلك! ما لك وللجوارشن؟ وما رغبتك فيه؟ قال: جعلت فداك! ما أقدر أن أكلّمك من الجوع إلا وأنا متكيء. الجوارشن ما أصنع به؟ هو نفسه ليس يشبع، ... ونحن الذين إنما نسمع بالشبع سماعا من أفواه الناس، وما نصنع بالجوارشن؟

واشتد على غلمانه في تصفية الماء، وفي تبريده وتزميله"[١]، فالسلوك الصادر عن البخيل تجاه الخدم مكون من ثلاثية تقوم على:

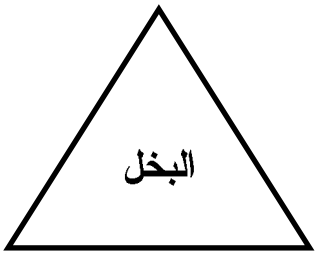

فالبخل أعطى صورة واضحة للسلوك الذي ظهر تجاه الخدم، فهو رد فعل عكسي ناتج عن "أنهم أكلوا كل جوارشن عندي"، وبالعودة إلى المعجم نجد: "الجرش حك الشيء الخشن بمثل...، والجراشة: ما سقط من الشيء تجرشه،...، الجرْش: صوت يحصل من أكل الشيء الخشن،...، وجرشت الشيء إذا لم تُنعّم دقه"[٢] ، فكل المعاني تشير إلى الخشونة/ الخدش المحسوس/الصلابة، فطبيعة الطعام المأكول فيها الكثير من القسوة والحشرجة مع الصوت الصادر عنها حقيقة، حتى التلفظ بها يجعل القارئ يستشعر مقدار الألم/ الفظاظة/ شظف العيش الذي يعاني منه هؤلاء الغلمان، وبالتالي حضور الثلاثية السابقة في صلتها بالبخل يتناسب مع لفظة الجوارشن معنى ولفظا، إضافة إلى ذلك الجوارشن: "نوع من الأدوية،... الهضام"[٣]، والمعنى الأخير يقود إلى النتيجة التالية: "ما أقدر أن أكلمك من الجوع إلا وأنا متكئ"، أي حصول الداء كنهاية متوقعة للدلالات السابقة،

(١) الجاحظ، مرجع سابق:٣٤-٣٥

(٢) ابن منظور، مرجع سابق، ١٢٤

(٣) الجاحظ، مرجع سابق، ٣٤ (الهامش)

وهنا تكون الصورة الناتجة عن سلوك البخيل هي الهلاك/ المرض/ الضعف، وهذه الدلالات متوافقة مع أفق المتلقي، فبناء على السلوكيات الظاهرة في القصة فهي تقدم حدا أدنى من الإدراك والوعي الذي يساعد على الولوج إلى عالم البخلاء، وفهم دواخلهم، واحتياجاتهم، وماهي المتلازمات التي يقيمون عليها بناء ذاتهم، وتجعلهم يصلون بغلمانهم إلى حد "إنما نسمع بالشبع سماعا من أفواه الناس"، والجملة الأخيرة هي نتيجة حتمية يتلقاها القارئ لتؤكد له أن الصورة السلوكية للتعامل المتبادل بين هاتين الشخصيتين تحت ثيمة البخل تخرج إلى حد التجاوز الأخلاقي -رغم التذكير الواقع بذلك- حتى تفعّل متطلبات ما تمليه عليها الاستجابة النفسية السلوكية لتلك الرؤية والاعتقاد دون مراعاة الخوف من الوقوع في المحظور الديني والمجتمعي، وما الذي يمكن أن ينتج عنه.

بالرغم من النظرة السلبية لحال البخيل كما صورها الجاحظ في مجتمعه، وكما هو متعارف عليه أيضا، وما أفاضت به الصور السلوكية السابقة لحال البخيل، إلا أننا نجد أنموذجا ينشد الاختلاف بفعل يدل على رؤية اقتصادية تكونت عن ذلك التوجه، فيظهر البخيل هنا في صورة القبيح/ الجميل، الذي يثير فكر المتلقي فيجعله يصنع من أي شيء مادة يُنتفع بها اقتصاديا، إذ يتبع تكنيكا يمكنه من تحقيق غايته، لأنه يعد ما يقوم به "ضربا من الاقتصاد وحسن التدبير"[(١)]، وصورته في بخلاء الجاحظ: "وكان أبو سعيد ينهى خادمه أن تخرج الكساحة[(٢)] من الدار. وأمرها أن تجمعها من

(١) الطاهر الحسيني، امباركة مصطفاوي، ظاهرة البخل عند الجاحظ قراءة تأويلية، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، م١٢، ع٢، ٢٠٢٠م، ١٠٩٦

(٢) أي الكناسة.

دون السكان، وتلقيها على كساحتهم. فإذا كان في الحين بعد الحين جلس وجاءت الخادم معها زبّيل، فعزلت بين يديه من الكساحة زبّيلا، ثم فتّشت واحدا واحدا، فإن أصاب قطع دراهم وصرة فيها نفقة والدينار أو قطعة حلى، فسبيل ذلك معروف. وأما ما وجد فيه من الصوف، فكان وجهه أن يباع إذا اجتمع من أصحاب البراذع.

وكذلك قطع الأكسية، وما كان من خرق الثياب، فمن أصحاب الصينيّات والصلاحيات وما كان من قشور الرمان، فمن الصبّاغين والدبّاغين. وما كان من القوارير، فمن أصحاب الزّجاج. وما كان من نوى التمر، فمن أصحاب الخشوف، وما كان من نوى الخوخ، فمن أصحاب الغرس، وما كان من المسامير وقطع الحديد، فللحدّادين... فإذا بقي التراب خالصا، وأراد أن يضرب منه اللبن للبيع وللحاجة إليه، لم يتكلّف الماء، ولكن يأمر جميع من في الدار أن لا يتوضؤوا ولا يغتسلوا إلا عليه، فإذا ابتلّ ضربه لبنا."[(١)]، إنّ الوقفة المتأنية مع حيثيات النمط السلوكي السابق عند المدائني تكشف عن بؤرتين متناقضتين لعب الجانب النفسي دورا كبيرا في تشكيلهما: البخل/ المهارة الاقتصادية، فالواقع الظاهر من خلال النص السابق يقدم صورة البخيل في ضوء فكر اقتصادي اجتماعي، يلبي فيه الاستجابة لطبع وغريزة متجذرة في داخله، ولكن بحيلة تعطي أنموذجا جيدا للجمع والكسب، بعيدا عن السبب الذي دفع إليها، ويبدو أن استخدام لفظة (الكساحة) كمصدر لفكرة الجمع والكسب يحيل إلى عالم أكبر من الدلالات، إذ تمد بكل خيط يتصل بالأخذ/ السلب/ الذهاب والإزالة/ الظفر بالشيء والحصول عليه، وتكون بمعنى أزاله/ أذهبه/ قطعه/ نقاه...، وتتظافر الدلالات السابقة وتخرج

(١) الجاحظ، مرجع سابق، ١٢٩-١٣٠

من عالم الآخر/ الإنسان إلى عالم الأنا/ البخيل، ويتكرر فعل جمع الكساحة لينصبّ على تجميعها من "دور السكان وتلقيها على كساحتهم" ويغدو معها السلوك الناتج عن البخل-هنا- حكاية تدخل المتلقي في عالم من التصورات التي تمهد الطريق نحو الثراء، خاصة حين يصل بهم الأمر -أي البخلاء- إلى "فإذا بقي التراب خالصا...يأمر...حتى يصنع منه اللبن[1]"، في هذا الجزء نحن أمام مفارقة ساخرة جادة، ساخرة تهدف إلى التهكم من طريقة تصرف هذا البخيل، وجادة حين يأخذ منها المتلقي الآني-آنذاك- والحالي رؤية إيجابية بجعلها أداة مبصّرة موجهة نحو كيفية الاستثمار وتحصيل الشيء من اللاشيء، وتحقيق البناء الإيجابي خارج حدود الدائرة التي يعمل عليها البحث، وخارج دائرة الأنموذج المقدم فيه.

(١) المقصود باللبن: ما يستخدم في البناء

المحور الثاني: سلوكيات البخيل في مسرحية "تاجر البندقية":

أما عند شكسبير فقد جاء سلوك البخيل متمثلا في شخصية اليهودي(شايلوك)، وهو سلوك يمثل نمطا واحدا في بنيته وغايته، بمعنى أن صورة البخيل لديه كانت متفردة وليست متعددة كما هو الحال عند الجاحظ، وشكلت التكوينة الدينية لديه حضورا بارزا في الدافعية السلوكية التي تجلت صورتها في عدد من الصور-كما قدمها شكسبير- جعلته يبيح لنفسه قوانين يعمل بها لتحقيق المركزية الذاتية وإن جاءت -في بعضها- خارج حدود العرف والعقل البشري، فهناك صراع داخلي، تمخض عن اتجاهات دينية، فكرية، وحياتية، لها صلة عميقة بحياة (شايلوك) ومكانته الاجتماعية والدينية من جهة، وطبيعة الحياة والعصر التي ينتسب إليها في ذلك الزمن من جهة أخرى، فيحضر على الصعيد توصيفٌ يوضح الخطوط الرئيسة التي تفسر بعض جوانب السلوك عند شايلوك، كما جاء في النص التالي:

شايلوك: "...نعتني بالكفر، وبأني كلب سفاح، وبصقت على زيّي اليهودي... تقول لي هذا وأنت

الذي بصقت لعابك على لحيتي، ورفستني رفسك للكلب الضال عند عتبة دارك، تريد مالا.

فما عساي أن أقوله لك؟...سيدي الكريم قد بصقت علي يوم الأربعاء الماضي، وركلتني في اليوم الفلاني،

ونعتني بالكلب تارة أخرى، ومن أجل كل هذا التعطف منك سأقرضك مالا كثيرا؟".

أنطونيو:"وما أحسب إلا أني سأنعتك بهذا مرة أخرى، وأبصق عليك مرة أخرى،

وأركلك أيضا بقدمي، فإن أنت أقرضتني المال فلا تقرضه لي إقراض الصديق للصديق،... ولكن أقرضها

لي إقراضك لعدو، إن هو أفلس طالبت بتوقيع العقوبة عليه وأنت مرتاح الصدر"[١]

ماسبق يهيء القارئ لاستشراف مسار السلوك المتوقع من قبل شايلوك، فهل يمكن الوصول لاستنتاج أو توقع يتناسب مع تلك المنعطفات التي سيقت في النص السابق ؟

إن نمط الحياة الذي رسمه شكسبير لـ(شايلوك) في (تاجر البندقية) وكرد فعل على ذلك النمط؛ يضعنا أمام صورة سلوكية تضج بالكثير من التجاوز لما فيها من مخالفة للواقع الإنساني، فقد أباح لنفسه أن يقتطع رطلا من لحم (انطونيو) عند انتهاء فترة الضمان التي ينبغي أن يسدد خلالها ما اقترض صديقه من مال -رغم عرض أضعاف ما قدم من المال عليه- وهذا الفعل كان استجابة لما يعج به اللاوعي في سلوك ذلك الرجل، مما جعل التذكر لديه يركز على:" فلو أني تمكنت من استغلال ثمرة واحدة منه، لنفست عن حقدي القديم عليه، إنه يكره أمتنا المقدسة...فاللعنة على قبيلتي إن غفرت له"[٢] فأصبح ذلك المخزون في حدود الظاهر، أو ما بعد اللاوعي لديه، وتمت تغذيته من خلال التوجهات الدينية التي شكلت أثرا عميقا في تشكيل ذلك المبدأ العدائي لديه؛ إذ كان ينتمي لليهودية في ظل اكتساح شبه تام للمسيحية التي يعتقدها كاتب النص وأبطاله، وهذا بدوره أدى إلى وجود

(١) ويليام شكسبير، تاجر البندقية، ترجمة: حسين أمين أحمد، (عمان-الأردن: دار الشروق، ١٩٩٤م) ٣٧

(٢) المرجع السابق،٣٥

ردة فعل معاكسة وعدائية في الوقت ذاته، كما ظهر في الصورة السابقة، حين راجعه (أنطونيو) طالباً إقراضه ثلاثة آلاف دوقية بالفائدة التي يريدها.

"فقال له: بالرغم من إهاناتك المتكررة لي ولقومي فإني مستعد لإقراضك هذا المبلغ بدون فائدة.

فدهش (أنطونيو) وقال: وكيف يكون ذلك؟

فأجاب (شايلوك) بكلام ظاهره اللين وباطنه المكر والخديعة:

ــ سأشترط في صك الدين إني سأقتطع رطلاً من لحمك إذا لم تسدد المبلغ في اليوم المحدد.

وبدت الدهشة واضحة على وجه (أنطونيو) وصديقه (بسانيو) وقال الأول:

ــ وهل هذا الشرط معقول؟.

وقال (شايلوك):

وهل من المعقول أن أطلب منك الوفاء بهذا الالتزام إذا لا قدر الله ولم تسدد هذا القرض". إلا أن المطالبة بما جاء في الصك كشف عن خبايا النفس ووضعها على طاولة النقد والتحليل.

فعند مساءلة لغة النصوص السابقة، يظهر تشكيل دلالي عميق، قُدّم من خلال نمط التكرار، وجمع فيه بين تكرار اللفظ وتكرار الحدث بغير اللفظ، مع اعتماد توصيف وتأريخ للتوصيف مختلف في كل مرة، ويمكن عرض ذلك كالتالي:

نمط مفرد	توصيف بتكرار مباشر وغير مباشر	توصيف بتكرار اللفظ + التأريخ
نعتني بالكفر	- وبأني كلب سفاح - رفستني رفسك للكلب - نعتني بالكلب تارة أخرى - ركلتني في اليوم الفلاني	- بصقت على زيي اليهودي - بصقت لعابك على لحيتي - بصقت عليّ يوم الأربعاء الماضي

نلحظ أنه عند حضور الجانب الديني اكتفى بجملة "نعتني بالكفر"، ولم تكرر مرة أخرى في سياق النص السابق، ولم يؤرخ لها أيضا؛ وكأنه يريد تمرير معارضته لهذا الوصف وتجاوزه في ظل السيادة للمسيحية في ذلك الزمن، ولأنه لا شيء يُرجى من تكرارها، ومع ذلك يأتي تفريغها ورفضها بشكل غير مباشر عند توسل التكرار باللفظ تارة، وبالحدث تارة أخرى؛ ليعكس الجزء المغيب في داخله تجاه المجتمع عامة وتجاه (أنطونيو) بشكل خاص:

فسياق "رفستني رفسك للكلب" و" ركلتني في اليوم الفلاني" يقدم صورة تجمع بين الوصف والتأريخ مع سلب ماهية التاريخ وعدم تحديده، فهو مجهول لأنه أراد تغييب فاعله، وإلا ما كان شرطه السابق حال تأخر الحصول على المال المستحق إلا سببا لتحقيق الغياب، ولعل العاطفة المشبعة بالعداء والكره قد غلبت على بخله في هذا الموقف، إذ أسقط حيز الاستجابة النفسية المبني على علاقته بالمال في سبيل تنمية استجابة أعلى يمكن أن تعود على السابقة بسياق التمكن/ عودة السطوة والهيبة/ تنمية السلوك الربوي لديه، وبالتالي عودة على بدء، أي عدم تعارض الشرط في واقعه الباطن عن سياق الحصول على الأموال وجمعها.

أما لفظة (بصقت) فتحمل كل دلالات الاحتقار والإهانة والإذلال التي نجدها تشغل الحضور الأكبر من حيث تكرارها في النص و بنفس صورتها المباشرة، فتبث للقارئ رسالة عميقة عن مقدار القسوة/ الألم/ فقدان الذات التي يستشعرها (شايلوك) خاصة عندما يكون ارتباطها بـ (الزي اليهودي/ اللحية) وهي مسميات تشير إلى أبعاد دينية اجتماعية عميقة، ففيها التعبير عن الهوية الدينية/ الثروة/المكانة/ الوقار، وهي صفات مسلوبة بالنسبة لـ (شايلوك)، ليكون التأريخ بتحديد (الأربعاء الماضي" تسجيلا يُسمع من خلاله سلوكيات البخل في صورة تجاوزت الإنسانية في ظل فقد شايلوك لها نتيجة سلبها منه مجتمعيا ودينيا.

نمط سلوكي آخر تدور العلاقة فيه في مضمار الأبوة، وما يشكّله هذا المضمار من علاقات خاصة تصل إلى درجات لا متناهية من العمق، لكنها تصل مع (شايلوك) إلى محطة تُسلب فيها تلك العاطفة؛ حين يتعلق الأمر بالمال الذي يمثل له مصدر القوة التي تتجلى معها الأنانية في حب الذات، حتى لو سقط مع ذلك الحب علائق تحمل خصوصية قوية في التعاملات الإنسانية، كعلاقته بابنته التي اسقطها استجابة لمؤثرات قوية تمارس سلطتها عليه وهي مؤثرات أساسها التكوينة الدينية والاجتماعية والاقتصادية التي جعلت من السلوك عند (شايلوك) يخرج في صورة مختلفة: "... ليتني أرى ابنتي ميتة عند قدميّ والجواهر في أذنيها! ليتها في نعشها عند قدميّ والدوقيات معها! لا أخبار عنهما، كيف؟ ثم المبالغ التي أنفقت في سبيل البحث عنها! يالها من خسارة تلو خسارة!"[(١)]، فتحول الحب الأبوي في ظل فقد المال إلى الزوال، أو إلى انكشاف السلوك العدائي الذي انعدمت معه كل الروابط. إذن في عوالم البخل ووفقا لمعيارية خاصة للقيمة التي

(١) ويليام شكسبير، مرجع سابق، ٧٦

ارتضتها هذه الفئة بصورة مطلقة؛ تُفقد القيم الوجدانية/الغريزية في الصورة المألوفة عندهم، وإلا لم تكن "ليت" في النص أداة تمن تفيض بحرقة شديدة على المال المسلوب، وتجمع بين رغبتين لن يتحقق له السمو الذاتي الداخلي –على الأقل– إلا بهما، وهما الحصول على ماله و موت ابنته، لذلك نجد في هذا التعبير دقة الربط بين الجواهر والأذن، وبين النعش(مكان) والدوقيات، ففي الأول حضور للصوت وهو صوت خاص بالمال/ الجواهر/ فتكون لذة المسموع متوافقة مع لذة الوصول والرؤية، وفي الثاني حضور للكثرة والاجتماع في المكان، وكلها مرتبطة بالمال، وهنا يكون التسليم بأن البخل لديه شكل مفهوما ووعيا خاصا، أُلغيت معه كل صلة بالحياة خارج حدد المال.

فعل آخر نجده عند بطل المسرحية وهو مشابه لسلوك بعض بخلاء الجاحظ، يتمثل في تعامل (شايلوك) مع الخدم، فنجد (لانسلوت) وهو خادم (شايلوك) يصف وضعه قائلا: "فلن يقرّ لي قرار حتى تفصل بينه وبيني مسافة،...إن سيدي يهودي قح... إني أتضور جوعا في خدمته، وبوسعك أن تعدّ ضلوعي بأصابعك"[1]، فرغم الثراء المزعوم في التكوين الخاص به إلا أنه يعيش خارج حدود الواقع المادي الذي يكتنفه، ويكتفي فيه بما هو أقل من الحد في البخل، ويربط هنا بين سمة البخل والاعتقاد الديني عند (شايلوك)، فهو يهودي قح، وكأن هذه الصفة هي الثيمة التي تنمي فيه سلوك البخل وتقويه وصولا بـ (لانسلوت) إلى "بوسعك أن تعد ضلوعي بأصابعك"، ما يعني شدة الانكشاف والبروز المحسوس الذي يلتصق فيه الجسد بالعظم؛ ليؤكد لنا أن البخل وصل إلى درجة الانحراف النفسي[2] الذي لا يمكن الانفصال عنه عند (شايلوك).

---

(١) ويليام شكسبير، مرجع سابق، ٤٨

(٢) إدريس عتبه، مرجع سابق، ٣٩٥

- **السلوك والحب في عالم البخلاء:**

لم يقدم كلا من الجاحظ وشكسبير تخطيطا معينا لهيئة أو نوع الحب عند البخلاء، ولكن هو غريزة يفترض بها أن تحمل كل ما يشي بالحياة/ العطاء/ الألفة/ المودة...، فهل جاءت صورته عندهما مقرّة لتلك الدلالات؟

يمكن القول إن الذات وهيمنتها ووجودها -كما أشير سابقا- مرتبطة بمعطى خاص، يعيشه كل من شخصيات البخلاء عند الجاحظ، وشخصية (شايلوك) عند شكسبير، وهو مُعطى يتسم بالقوة بقدر تمكنه من الشخصية، وجعله أساسا في معيارية رؤيتها لذاتها، فتصبح له استراتيجية خاصة تفرض هيمنتها حتى في نطاق العلاقات الإنسانية التي تجمعها ضمن علاقة معينة، كالصلة بين الأباء والأبناء، وما الذي ينبغي أن تتسم به هذه الصلة.

فكيف تجسدت تلك العلاقة عند هذه الفئة؟ وهل كان لثيمة البخل الأثر المضاد لذلك السلوك الغريزي عند كليهما؟

وعليه فقد جاءت رمزية الحب عندهما في ارتباطها بالثيمة السابقة متمثلة في التالي:

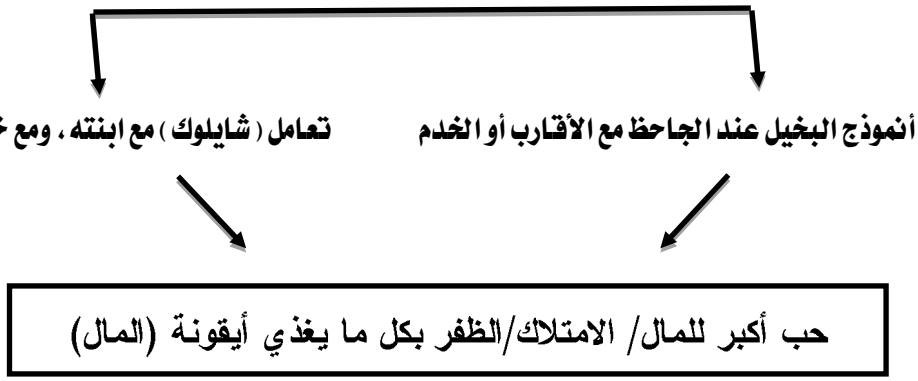

الحب في مفهومه الحقيقي هو وليد سلوك فطري قائم في الحياة البشرية، وجاءت نماذجه في المدونتين، مثل دور مريم الصناع وما قدمته لابنتها في بخلاء الجاحظ، وفي نص شكسبير نجد تضحية ووفاء (أنطونيو) لصديقه، وتضحية وحب وعطاء (بورشيا) لزوجها، لكنّ الحب في مفهومه العدائي هو سلوك مكتسب، نتج عن مؤثرات خاصة بعضها يتعلق بمنطق الشخص نفسه في اعتقاده الديني، وبعضها جاء نتيجة تشكيل المجتمع في تعامله مع تلك الشخصيات، وجاءت كلها متضافرة مع غريزة أكبر تغذيها وهي البخل، كما في بعض النماذج.

فالحب في صورته الثانية/ غير المألوفة، تجسدت عند بخلاء الجاحظ في تقليص تركيبة اجتماعية مثلت جذرا أساسيا في البنية التكوينية الفطرية للمجتمع عامة والعربي بشكل خاص، فشكلت هذه الفئة الاتجاه المضاد في أفعاله وسلوكه لتلك البنية، في ظل السيطرة المطلقة للعرف الذي يقوم عليه البخل، فالرواية تقول بإمكان إسقاط علاقة فطرية وإحلال علاقة منطقية بين الفرد والمنظومة التي يرى فيها تشكيلا لهويته واستجابة لما يؤمن به إدراكه، لذلك كان رد فعل الابن هو في بخلاء الجاحظ الامتعاظ والألم ليس لموت أبيه وإنما لكون الأب قد أحدث أثرا بسيطا في الجبنة، وما تنطوي عليه كلمة (أثر) من دلالات تتنافى عن الموقف الصادر من الابن، ولكن هي سلطة البخل وامتداده إلى وعيه المباشر، وبالتالي أُلغيت معها الرؤية خارج تلك الدائرة.

وفي السياق ذاته نجد (شايلوك) يمثل التمسك بمبادئه الخاصة، وبقوميته واعتقاداته رغم حضوره خارج حدود المجتمع الذي ينتمي إليه، الأمر الذي أوقعه في مهلكة دفعت به إلى التصالح اللامرغوب مع الآخر

فكان اعتناقه المذهب المسيحي؛ للتخلص مما أحاط به من أفعال أدخلته في دائرة مغلقة لن يكون الخروج منها إلا بالعودة للحياة مرة أخرى من خلال ذلك التصالح، وجاءت غريزة الحب التي تربط بينه وبين ابنته في سياق فُقدت معه كل رمزية يمكن أن تشير لتلك الغريزة؛ إذ كان تمني موتها في مقابل الوصول إلى ماله دلالة تؤكد تكوينة الشخصية البخيلة التي تقطن في وعيه، وتشكل إحساسه وحالته الوجدانية والفكرية على حد سواء، وما تلك العوامل المحيطة إلا لتغذيتها وتنميتها حتى ظهرت في صورتها النهائية.

- **بين العملين**:

إن دراسة السلوك عند شخصية البخيل بين بخلاء الجاحظ -نماذج مختارة- وبين أنموذج متفرد جاء عند شكسبير في مسرحيته "تاجر البندقية" قد خرج إلى التالي:

- عدم وجود تأثر وتأثير بين الأدبين، بل هي تداعيات عامة تمثل متطلبات إنسانية ثابته على مر الزمان، ومع اختلاف المكان، وبناء على ذلك لا يمنع وجود فكر وقيم إنسانية وسلوكيات مشتركة بين الأمم، تشكل عنصرا مهما في بنائها، وتحتاج إلى التعبير عنها مهما اختلفت اللغات والديانات والسياسات، فالبشرية في حاجة ماسة لكل ما هو جدير بتغذيتها للسير في توافق إيجابي فعال مع الكون والحياة؛ حتى يتحقق لها الأمان والاستقرار والبناء.

- عند بخلاء الجاحظ كان المغذي للسلوك هو الجانب الاقتصادي، وهذا لاينفي وجود أنواع أخرى من السلوك تختلف باختلاف الشخصيات، فعند زبيدة بن حميد كان السلوك ثقافيا اقتصاديا (تنمية لثقافة البخل مع الكل)، وعند المدائني كان اقتصاديا عقائديا، فهو إمام مسجد وله حجج

إقناعية في البخل[1]، أما التوجه السلوكي عند (شايلوك) فقد كان اقتصاديا أنانيا عدائيا عقائديا خاصة في قبوله للشرط الدموي[2] الذي افترضه حلا لتحقيق الاقتراض.

- إن فعل السخرية في بخلاء الجاحظ كان أكثر عمقا ووضوحا منها عند شكسبير الذي غلب الطابع التراجيدي على السلوك الساخر عند شخصيته (شايلوك)، حتى في جانب اللغة المعبرة عن الصور السلوكية، كانت فيها قسوة وجدية عالية عند (شايلوك)، وعند الجاحظ جمع بين متضادين ساخر/ جاد، خاصة في أنموذج الابن، وجماعة المروازة، وابن حميد وغلمانه.

- شخصيات الجاحظ في ممارساتها وسلوكياتها تخضع لثيمة البخل بعيدا عن الجانب الديني، أما شخصية (شايلوك) فقد كان الجانب الديني هو القيمة التي ينطلق من خلالها في تعاملاته، ولعل سلوكه مع ابنته قد جمع بين بخله وتلك القيمة خاصة أنها هروبها ارتبط برجل مسيحي.

- اختلاف التوظيف اللغوي للتعبير عن الدلالات المرتبطة بالبخل، فعند الجاحظ يحضر البخل من خلال السلوك المشاع العمل به مع الآخر، بينما نصل إليه عند (شايلوك) من خلال وصف+رد فعل، كما هو الحال عندما عُرف بخله من منظر منزله، وما كان من رد فعله على هروب ابنته بماله.

---

(١) يُنظر: عقيلة بعيرة، بنية الخطاب السردي في بخلاء الجاحظ، رسالة ماجستير، الجزائر، ٢٠١١م-٢٠١٢م، ٣٥ وما بعدها. وينظر: عبدالله أحمد باقازي، القصة في أدب الجاحظ، ط١، (جدة: تهامة، ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م)

(٢) اُستمدت هذه التسمية من: أحمد المختار، شكسبير مؤلف مآسي البشر، الأهرام، ٢٠١٤/٢/١٠م.

- يوظف الجاحظ ألفاظا ذات دلالة متتالية في تفعيل التتابع الحدثي نحو الأعلى في تقديم الصورة النمطية للبخيل (الأنموذج) فتكون الألفاظ ساخرة/ مؤلمة/ مجسدة للحدث/ مؤكدة لتناقضات وتقابلات دلالية عند المتلقي، فيصطدم بها تارة، ويؤكدها تارة أخرى، وجاءت صورة الاصطدام والتناقض في طبيعة العلاقة التي تجمع الابن مع أبيه، وفي سياق الألم الذي ارتضاه البخلاء على أنفسهم في سبيل الحصول على المتعة النفسية والعقلية التي يرونها كما في فعل المراوزة. أما عند شكسبير فمن حيث الدلالة النفسية نجدها تراكمية/ جادة؛ تأتي نتاجا لحدث مباشر كانت له جذور سابقة، وتنمو سياقاتها ودلالاتها مع تطورات الأحداث، ولعل لجنس العمل النثري صلة بذلك (المسرحية).

- من حيث الدلالة على الأبعاد الاجتماعية كان الانتقال من قيمة حسنة إلى قيمة قبيحة عند شخصيات الجاحظ، أي أن البخل تمثل من خلال شخصيات تمتلك معرفة وعقل ودين ومال، فكانت غرابة الفعل الصادر عنهم، ومخالفته للقيمة الجيدة التي يفترض بها أن تكون عندهم، فأصبح العطاء نوعا من الانعدام، وهو مضاد للحياة عندهم، وجاء التغيير القيمي المساوي للبخل هو الدال على سمو الإنسان وعقله، وهنا كانت المغايرة التي جمعت -على الأغلب- بين فئة امتازت بالقدرة والتمكن وبين المنع/البخل وسطوته على البنية الفكرية النفسية لديهم، أما عند شكسبير فتظهر الصورة العامة للبخيل (شايلوك) بمكوناتها الفكرية/ الدينية/ المجتمعية/ النفسية البخل على أنه أقرب إلى كونه غريزة متأصلة فيه وتنتمي لتكوينته الخاصة، ولم يكن عنصر المغايرة أو المفاجأة إلا في طبيعة الشرط الذي وضعه لاسترداد ماله من (أنطونيو).

– الجاحظ عندما قدم صورة السلوك مع الخدم، اهتم بما يتناسب مع البيئة العربية فذكر نوع الطعام الذي عرضهم للضرب، وسوء المعاملة، والعرب عامة تهتم بنوع الطعام وجودته عند التقديم، ويمكن عد ذلك نوع من السياقات الثقافية التي يمكن أن نلمحها ضمن خفايا النصوص ودلالاتها في بخلاء الجاحظ، وعند شكسبير وصفت الحالة التي آل إليها الخادم، دون أن يعرض لذلك، وهذا ليس من صميم الثقافة لدى (شايلوك) بشكل خاص.

– درجة القوة من حيث العمق النفسي الفكري للسلوك عند بخلاء الجاحظ وعند بخيل شكسبير يمكن تصورها في ممارساتها على الآخر كالتالي:

عند الجاحظ: السلوك مع الخدم مع الأقارب مع المجتمع

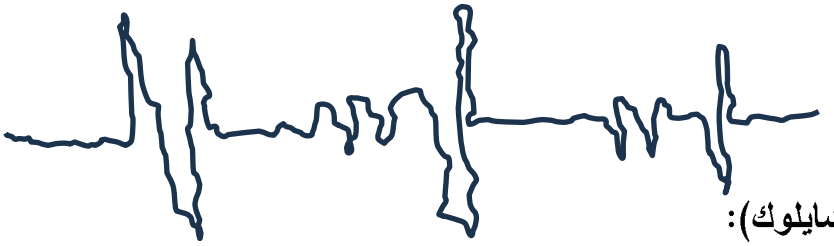

شخصية (شايلوك):

فالسلوك مع الخدم –من خلال الأنموذج المقدم– كان متقاربا نوعا ما في درجة الأثر والوقع على الشخصية في كلا النصين، بينما ترتفع حدة السلوك وتبلغ الذروة عند الاتصال بالأقارب، كما جاء في علاقة الابن بأبيه في بخلاء الجاحظ، وعلاقة (شايلوك) بابنته، مع اختلاف طفيف بين النموذجين، وفي صلته بالمجتمع كان فيه نوعا من الاختيار الشخصي للألم النفسي كما عند المراوزة، وتعمد إيقاع الألم عند (شايلوك) .

– اللغة والعاطفة في كلا النصين يمكن عدها مصدرا خصبا لدائرة البحث النفسي ومحاولة تفسير السلوك الصادر عن هذه الفئة من المجتمع.

– يمكن العناية بالمكان كعامل أساسي في تفسير ظاهرة البخل، ولعله يحظى بدراسة أخرى تتصل بذلك.

والله ولي التوفيق

المراجع:

- بعيرة، عقيلة ، بنية الخطاب السردي في بخلاء الجاحظ، رسالة ماجستير، الجزائر، ٢٠١١م-٢٠١٢م .
- باقازي، عبدالله أحمد ، القصة في أدب الجاحظ، ط١، (جدة: تهامة، ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م.
- ابن منظور، لسان العرب، ط١، م١، (بيروت: دار صادر،٢٠٠٠م) .
- تيري إيجلتون، مشكلات مع الغرباء دراسة في الأخلاق، ترجمة: عبدالرحمن مجدي، مصطفى محمد فؤاد، مراجعة: مصطفى محمد فؤاد، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي،٢٠١٧م)
- الحسيني، الطاهر ، امباركة مصطفاوي، ظاهرة البخل عند الجاحظ قراءة تأويلية، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، م١٢، ع٢، ٢٠٢٠م.
- حيدر محمود غيلان، الأدب المقارن ودور الأنساق الثقافية، مجلة دراسات يمنية، ع٨٠، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ع٨٠،٢٠٠٦م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البخلاء، تقديم وضبط: يوسف الصميلي، (بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠١٥م).
- خضري، محمد رضا ، سيكولوجية البخل عند الجاحظ، متاح على: revue.ummto.dz/index.php
- خليفة، عبداللطيف محمد ، وعبد المنعم شحاته محمود، سيكولوجية الاتجاهات (المفهوم، القياس، التغيير)، (دار غريب للطباعة والنشر:١٩٩٤م).
- الرويلي، ميجان ، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ط٣ (المغرب: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٢م) .

- سعد،و باهية ، سيمياء البخل في كتاب البخلاء للجاحظ، مذكرة لنيل درجة الماجستير،(الجزائر:جامعة مولودمعمري تيزي روز، ٢٠١م).
- طاهر، حامد، ظاهرة البخل عند الجاحظ دراسة نصية، حولية مركز البحوث والدراسات الإسلامية، ع٩، ٢٠٠٩م.
- المختار، أحمد، شكسبير مؤلف مآسي البشر، الأهرام، ٢٠١٤/٢/١٠م.
- ويليام شكسبير، تاجر البندقية، ترجمة: حسين أمين أحمد، (عمان- الأردن: دار الشروق، ١٩٩٤م) .

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	٣٣٨٢
٢-	Abstract	٣٣٨٣
٣-	افتتاح	٣٣٨٤
٤-	تقديم	٣٣٨٥
٥-	تعريف موجز بمحتوى النصين:	٣٣٨٧
٦-	البخلاء للجاحظ:	٣٣٨٧
٧-	تاجر البندقية لشكسبير:	٣٣٨٨
٨-	الدراسة:	٣٣٨٩
٩-	المحور الأول: سلوكيات عربية:	٣٣٩٣
١٠-	المحور الثاني: سلوكيات البخيل في مسرحية "تاجر البندقية":	٣٤٠١
١١-	السلوك والحب في عالم البخلاء:	٣٤٠٧
١٢-	بين العملين:	٣٤٠٩
١٣-	المراجع:	٣٤١٣
١٤-	فهرس الموضوعات	٣٤١٥

تم بحمد الله